

(الحلقة الثامنة)

حركة الاجتهاد في القرون المتأخرة: من الإبداع إلى الاتباع

د. حسن بكير
أستاذ الدراسات الإسلامية | هولندا

أسهمت الظروف - السالف بيانها - في تثبيط حركة الاجتهاد، ثم آل الأمر إلى سيطرة التقليد المحض. ويمكن تلخيص أهم العوامل التي رسخت التقليد - بجانب ما ذكر - فيما يلي:

1 - القضاء:

ارتبط القضاء - ابتداءً - بالاجتهاد ارتباطاً وثيقاً، لكن ضعف الوازع الديني لدى القضاة، وعبث بعضهم بالأحكام هزاً ثقة العامة بهم؛ مما تحتم معه إلزام القاضي بأحكام معروفة، وبخاصة بعد انتشار المذاهب وتدوينها. فرغب أهل كل إقليم في التحاكم إلى ما شاع بينهم من أحكام مذهبهم، حتى يقطعوا الطريق على القضاة في التلاعب بالأحكام.

2 - المذهبية:

قام أنصار المذاهب بدعاية قوية لمذاهبهم. وأسهم ارتباط بعض التلاميذ بالحكام في نشر مذاهب دون أخرى. وبمرور الزمن أصبح من غير الممكن - لأي مجتهد - أن يصرح بالاجتهاد دون أن يتعرض إلى الهجوم من الأتباع المقلدين لما اشتهر من المذاهب.

3 - التدوين:

إن تدوين المذاهب قد رسّخ وجودها وساعد على نجاحها، ودفع الجمهور إلى الأخذ بها والاعتماد عليها. والاكتفاء بالموجود يصرف - غالباً - عن تكلف البحث والتنقيب.

لقد سار التقليد موازياً للحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في العالم الإسلامي. وهي حياة مشحونة بالاضطرابات والفتن في كثير من فتراتها، نُكِبَ فيها العلم والعلماء، وضعفت فيها الهمم والعزائم. وبدل

أن تستمر حركة الاجتهاد في مسارها الطبيعي نحو الرقي، اضطر العلماء إلى بذل الجهود العظيمة للحفاظ على القديم، حتى شاعت عبارة «قفل باب الاجتهاد»، مع أن بابه مفتوح في كل الأزمان، لكن لمن ملك شرائطه وحاز مؤهلاته.

والذي أراه أن مجرد الحفاظ على القديم أمر محمود في ظل ظروف الانهيار السياسي والتخلخل الاجتماعي.

لقد خلّدت عصور الاجتهاد مؤلفات مبتكرة هي صورة صادقة لما راج فيها من نشاط فكري وإبداع منهجي. أما عصور التقليد فقد تركت مصنّفاتٍ فقهيةً ذات طابع موسوعي، وهذا أمر طبيعي. إذ العمل الموسوعي أساسه جمع المتفرق، وهو محتاج إلى جدٍ وصبر⁽¹⁾ أكثر من حاجته إلى عقل مبدع.

وعلى الرغم من استحكام الجمود الفقهي، فقد قامت محاولات لإصلاح أحوال الفقه والثورة على منهج الفقهاء الذين استمسكوا بالفروع وقطعوا الصلة بالأصول.

وأبرز مثال على ذلك ما قام به الموحدون⁽²⁾ من مناهضة للفقهاء وللاجتهاد بالرأي عموماً، داعين للرجوع إلى الكتاب والسنة والعمل بظاهر نصوصهما.

¹ - ظهر الإسلام. 195/4.

² - قامت دولة الموحدين سنة (515هـ/1121م) واستمرت إلى سنة (674هـ/1275م). وتُنسب هذه الدولة إلى الجماعة التي كوّنّها محمد بن تومرت المهدي بالمغرب الأقصى. وترجع كلمة "الموحدين" إلى قولهم بأن الله تعالى وحده لا يمكن أن تتصوره المحسوسات، فهو فوق كل تشبيه. توفي ابن تومرت بعد أن وضع أسس هذه الدولة وأوصى بالخلافة - من بعده - لقائده عبد المؤمن بن علي. وقد امتازت الفترة الأولى من حكم الموحدين بتقدم حضاري عظيم في مجال العمارة والثقافة. كان الإصلاح الذي دعا إليه ابن تومرت في ميدان العقيدة ثورة حقيقية ضد المعتقدات السارية آنذاك في المغرب. لأنه أدى إلى إعلان الجهاد على المرابطين أصحاب السلطة آنذاك والذين اعتُبروا مسؤولين عنها. وخلاصة منهجهم الإصلاحية في الفقه هو إحلال المنهج العقلي لتقرير الأمور الشرعية بالدراسة المباشرة لـ "الأصول" (القرآن والحديث) محل المنهج المتبع - آنذاك - في الشمال الإفريقي والأندلس، وهو دراسة المسائل الفقهية وفق المذهب المالكي.

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي. ت: محمد سعيد العريان. مصر، مكتبة الثقافة الدينية. ص 245 وما بعدها؛

غير أن دعوتهم لم تكن دعوةً سلميةً مجردةً عن الإكراه. بل صاحبها حمل الناس على ترك الاشتغال بالفروع الفقهية، وحُرقت كتب الفروع. وأوقعت المحن بالفقهاء سجنًا وضرباً وقتلاً.

ولا شك أن ما يُفرض بالإكراه – لا سيما في مجال العلم – فإن النفوس – عادةً – تأباه ولا تتقبله. ولو أن الموحدين دعوا إلى منهجهم بحكمة، وتجردوا من أهواء السياسة وأغراضها، ولم يضيقوا بمناهج مخالفيهم لأمكنهم أن يضعوا أرجلهم – بثبات – في طريق الاجتهاد المستقيم.

لكن الإيغال في العداوة والتطرف في الخصومة يضيق الآفاق، ويعيق الرؤية السليمة الواضحة. وهذا ما حصل للموحدين؛ فمعاداتهم الشديدة لأهل الرأي - في الفقه – جعلتهم يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزونها، حتى أصبح الاجتهاد – عندهم – هو إبدال الرأي بمذهب الظاهرية الذي لم يستحسنه الجمهور وعده جموداً.

والواقع أن من أهم الدوافع التي حملت الموحدين على نصرته منهجهم الظاهري هو الانتقام من الفقهاء المالكية الذين عظم شأنهم أيام المرابطين، وحققوا – من المكاسب والنفوذ – ما جعلهم مثار نقمة أعدائهم.⁽³⁾

والموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة. الرياض. ط: 2. (1419هـ/1999م). 371/24؛ والفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ألفرد بل، تر: عبد الرحمن بدوي. بيروت، دار الغرب الإسلامي. ط: 3. 1987م. ص 247 وما بعدها؛ وابن تومرت، عبد المجيد النجار. بيروت، دار الغرب الإسلامي. ط: 1. (1403هـ/1983م)؛ وأغلب مراجع تاريخ المغرب في فترة الموحدين.

³ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص 235-236؛ والفكر السامي. 172/2؛ وتجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، عبد المجيد النجار. فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط: 2. (1404هـ/1984م). ص 83-88.